تاريخ التعليم فى عصر محمد على

مصادره ووثائقه

يحتل « التعليم فى عصر محمد على » المكان الأول من اصلاحات العاهل الكبير . فقد احتفل له طوال حكمه ، وبذل له الكثير من المال والفكر ، وحشد له الجهود ، ووفر له أقصى ما هيأت له أسبابه ووسائله المحدودة من عوامل النجاح والتدعيم . لهذا حرصت أكثر الكتب والبحوث التى نشرت عن عصر محمد على ،على أن تخصص جانبا منها للحديث عن مدارس محمد على وبعثاته والنظم التعليمية واللوائح المدرسية .. الخ ، تستوى فى ذلك كتب المعاصرين أو المتأخرين ، من تلك المراجع (العامة) التى تؤرخ لمصر الحديثة أو لعصر محمد على وحده ، أو من تلك المراجع (الخاصة) التى تؤرخ للتعليم فى مصر .

وليس قصدنا هنا أن نذكر — على سبيل التعداد — مصادر تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، فقد فعلنا هذا فى مكان آخر[1] ، ولكنا نهدف الى وضع دراسة نقدية لأهم هذه المصادر مع تحليل لأهم الوثائق المنشورة وغير المنشورة .

المصادر العامة :

ولا شك أن فى مقدمتها ما كتبه نفر من الموظفين الأجانب — ومن الفرنسيين خاصة — فى حكومة محمد على ، وفى الادارة التعليمية على وجه الخصوص . وفى طليعتهم الطبيب كلوت بك الذى ارتبط اسمه

(١) انظر قائمة المراجع فى كتابنا « تاريخ التعليم فى عهد محمد على » .

طويلا بالتعليم الطبى فى عهد محمد على وعباس وسعيد . وقد ترجم كتابه — لمحة عامة الى مصر — الى اللغة العربية ونشر فى مجلدين كبيرين .

واذا كان حديث كلوت بك عن التعليم فى عهد محمد على جاء موجزا ، على غير ما كنا نتوقعه من مؤسس أقدم مدرسة عالية بمصر ، فان له تقارير كثيرة أفاض فيها بالحديث عن مدرسة الطب التى أنشأها وقام على التدريس فيها وقتا طويلا . ومن تلك التقارير التى طبعت فى عهد محمد على :

"Compte rendu des travaux de l'école de Médecine."

وقد نشر فى باريس فى ١٨٣٣ .

وله تقرير قدمه للدكتور بورنج مبعوث الحكومة الانجليزية لمصر فى سنة ١٨٣٨ ونشره بورنج فى تقريره عن مصر .

وفى تقارير كلوت بك عن التعليم الطبى فى عهد عباس وسعيد اشارات كثيرة الى مدرسة الطب فى عهد محمد على . ومن هذه التقارير :

1. Relation des phases parcourues par l'instruction médicale en Egypte sous les gouvernements d'Abbas et de Said Pacha.
2. Compte rendu de la réouverture de l'école de médecine du Caire.
3. Compte rendu de l'examen des élèves de l'école de medecine.

وأكثر تفصيلا فى موضوع « التعليم فى عصر محمد على » الكتاب الذى وضعه زميل كلوت بك ومنافسه — بل خصمه — وهو الطبيب البيطرى هامون ، وكتابه عن عصر محمد على من الكتب الهامة فى تاريخ ذلك العصر .

Hamont : l'Egypte sous Méhémet Ali, 2 vols. Paris. 1843.

والدكتور هامون مؤسس فن التطبيب البيطرى بمصر ، خدم طويلا فى دواوين الجهادية والزراعة والمدارس . وقد أنشأ مدرسة الطب البيطرى ، واشترك فى اللجنة التى نظمت التعليم فى مصر فى سنة ١٨٣٦ ، وقد أفاض فى الحديث عن المنشئات العسكرية والتعليمية التى اتصل بها

وأورد معلومات كثيرة طريفة عن المدارس وادارتها وحياة التلاميذ بها . على أن « هامون » كان مضطرب الأعصاب ، يعتقد دائما أن الدسائس تحاك من حوله ، فسأء رأيه فى حكومة محمد على كلها ، وامتلأ كتابه بالنقد اللاذع ، بل بالتجريح الشديد لكل الاصلاحات التى نهض بها محمد على . ومن هنا ينبغى على الباحث فى عصر محمد على أن يصطنع الحذر فى تناول المعلومات المستفيضة والآراء التى امتلأ بها كتاب هامون .

أما الدكتور برون Perron الذى كان أستاذا بمدرسة الطب ومديرا لها فى سنة ١٨٤٥ فقد ترك لنا رسائل كان يرسلها لصديق له بباريس ، وقد نشرها يعقوب أرتين باشا فى سنة ١٩١١ . والدكتور برون كان — فوق عمله الرسمى — مستشرقا يعنى بالاتصال بشيوخ الأزهر والوراقين ، ويدرس الأدب العربى فى مظانه القديمة ، ولهذا جاء اهتمامه فى رسائله بهذه الناحية أكثر من اهتمامه بناحية التعليم والمدارس .

ومن العسكريين الذين عملوا فى تنظيم جيش محمد على ومؤسساته التعليمية العسكرية الضابط الفرنسى بلانا "Planat" وقد ترك لنا كتابا عن نهضة مصر فى عهد محمد على .

Planat : Histoire de la Régenération de l'Egypte. Paris, 1826.

واذا كان « بلانا » قد غادر مصر مبكرا قبل أن يشهد ازدهار النهضة التعليمية بين سنتى ١٨٣٦ و ١٨٤٠ فان المعلومات التى أوردها عن مدرسة أركان الحرب — أو مدرسة الرجال على حد تعبير أوراق ذلك العصر — وهى المدرسة التى أنشأها بلانا وقام بالتدريس فيها — معلومات ثمينة .

أما الفريق الآخر من الكتاب الأجانب المعاصرين وهم الذين أقاموا فى مصر زائرين أو عملوا بها مبعوثين فانا نضع على رأسهم فيلكس منجان F. Mengin الموظف فى القنصلية الفرنسية بالقاهرة . وقد نشر ثلاثة

مجلدات فى وصف حكومة محمد على وآثارها ، حاول فيها أن تؤلف تاريخا لمصر بين سنتى ١٧٩٨ و ١٨٣٨ ومنجان كما يبدو من كتابته يحرص على أن يكون نزيها ، مع ميل الى محمد على وتقدير كريم لاصلاحاته .

ولا يقل عن منجان فى هذه الناحية موريه Mouriez بمجلداته الخمسة فى تاريخ محمد على ، وقائمة المصادر (العامة) عن عصر محمد على زاخرة بأسماء كثيرة ، نذكر منها سانت جون وسكوت وبكلر مسكاو وغيرهم كثيرون إلا أن جانب (التعليم) فى هذه المصادر (العامة) لا يعدو أن يكون أحد الجوانب التى حفل بها عصر محمد على وصورها هؤلاء المؤلفون ، لهذا لم يلق منهم عناية خاصة .

ونستطيع أن نلحق بهذه القائمة من المصادر العامة التقرير القيم الذى وضعه دكتور بورنج عن مصر وكريت فى سنة ١٨٣٨ . ولا يزال تقرير بورنج — بما حواه من وصف شامل وتقارير فرعية واحصائيات — من أهم الوثائق المنشورة لذلك العهد ، وهو لا يزال لهذا مرجعا أساسيا لكل باحث فى تاريخ مصر فى عصر محمد على . والمعلومات التى أوردها عن التعليم فى هذا العصر تعد من الدرجة الأولى فى الأهمية ، فقد اتصل بمدير ديوان المدارس ونظار المدارس وأساتذتها واستكتبهم التقارير وجمع الاحصائيات ولخص اللوائح .

المصادر الخاصة :

ونقصد المصادر التى تؤرخ للتعليم فى عصر محمد على أو تصف ناحية من نواحيه . وقد نشرت فى عهد محمد على تقارير ولوائح لا غنى للباحث عن الرجوع اليها . وقد ذكرنا تقارير كلوت بك عن مدرسة الطب وأشرنا الى التقارير التى قدمت للدكتور بورنج ونشرها هذا فى تقريره العام . ونضيف الى ذلك التقرير أو البحث القيم الذى وصفه العالم الفرنسى Jomard جومار الذى قدم الى مصر فى باريس خدمة كبيرة

بالاشراف على البعوث التى كانت ترسلها من الطلاب للدراسة بفرنسا . وقد نشر جومار هذه الدراسة الممتعة عن « المدرسة المصرية بباريس » فى الصحيفة الأسيوية

Jomard : Ecole Egyptienne de Paris (Journal Asiatique, 2e. série, II. 1828.)

وقد نشر جومار هذه الدراسة بعد أن مضى على البعثة فى باريس عامان ، ذكر جومار أسماء المبعوثين وما يعرفه عن أعمارهم وجنسياتهم ودرجة ثقافتهم ونواحى اختصاصهم ونتائج امتحاناتهم ، وتنبأ لكثير منهم بالنبوغ ، نذكر منهم رفاعة رافع ومصطفى مختار وأرتين وأسطفان وغيرهم .

ومن الوثائق الهامة التى نشرت فى عصر محمد على عن التعليم فى عهده اللوائح التى وضعت لتنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ ، وقد نشرت النسخة الفرنسية من هـذه اللوائح بباريس فى تاريخ غير مذكور . وسنعود الى هذه اللوائح لنحللها بعد قليل .

وموضوع « تاريخ التعليم فى مصر » من الموضوعات التى لا يمكن أن نقول انها لم تكن مطروقة ؛ فقد كان يستهوى من وقت لآخر الباحثين من مصريين وغير مصريين ، وطبيعى أن يكون عصر محمد على نقطة البداية لكل مؤرخ للتعليم الحـديث بمصر . على أن من الحق أن نقـول ان النصيب الذى كان يبذل فى هذه المؤلفات لتاريخ التعليم فى عصر محمد على ليس من القوة والعمق بما يتكافأ وأهمية هذا العصر ، وأهمية (التجديد) الذى بدأه محمد على فى مجال العلم والتعليم . ولاشك أن هذا يرجع — قبل كل شىء — الى ما كان من قلة المادة المنشورة وخاصة لوثائق ذلك العصر .

ولا شك أن مؤلف دوربك Dor عن التعليم فى مصر (باريس ١٨٧٢) يقع فى الطليعة من مكتبة تاريخه ، ليس من حيث السبق التاريخى فقط ،

وانما من حيث المادة والفكرة والدراسة البيداجوجية . فادوار دور عالم سويسرى فى مسائل التربية والتعليم ، زار مصر مستشفيا فى سنة ١٨٧٢ ، ولكن « غريزة المعلم » دفعته لأن يدرس نظام التعليم فى مصر ، فجاء كتابه ثمرة هذه الدراسة ، واجتذب الكتاب نظر حكومة اسماعيل الى المؤلف فأسندت اليه رياسة التفتيش . وبذلك أتيح لدور بك أن يشارك مصطفى رياض ناظر المعارف فى ذلك الوقت فى خطته الاصلاحية على أساس لائحة رجب ١٢٨٤ التى كان قد وضعها على مبارك .

والفكرة المهيمنة على دور بك فى كتابه وتقاريره وجهوده فى الادارة التعليمية فى عهد اسماعيل ان مصر لا تملك نظاما قوميا للتعليم ، فالتعليم فى الكتاتيب الأهلية القديمة أصبح لا يساير التطور الجديد ، والتعليم الحديث (الأولى) الذى أدخله محمد على غريب عن البلاد ، فينبغى أن تتجه الجهود الى اقامة نظام قومى للتعليم يستمد مقوماته من كلا النظامين التعليميين : القديم والحديث . وقد تتبع دور فى كتابه الأصول الأولى لهذين النظامين ووصف معاهد كل منهما ، ونقد أساليب التعليم المتبعة فيها . واذا كان النصيب الذى خص عصر محمد على من ناحية المعلومات جاء ضئيلا الا أنه قيم بتوجيهاته ونقداته .

وانقضت مدة طويلة حتى نشر يعقوب أرتين باشا كتابه عن « التعليم فى مصر » بالفرنسية فى باريس فى سنة ١٨٨٩ . ولاشك فى أن أرتين باشا كان من أوائل الذين خدموا هذا الموضوع بالسبق الى الكتابة فيه فضلا عن خدمته للتعليم نفسه اذ مضى جانبا كبيرا من حياته الوظيفية وكيلا لنظارة المعارف .

حاول أرتين باشا أن يضع كتابه على أساس تاريخى بيداجوجى ، ولاشك أنه استفاد كثيرا من مؤلف دور بك فى موضوعه . درس أرتين باشا التعليم الاسلامى عامة وفى مصر خاصة ، وحاول أن يوازن

بين التعليم فى العصور الوسطى فى الشرق وفى الغـرب ، ثم انتقل أرتين باشا الى دراسة الأساس الآخر الذى يقوم عليه التعليم فى مصر : وهو التعليم الحديث أو التعليم « على الطريقة الأوروبية » كما يدعو أرتين . وفى رأيه أن هذا اللون من التعليم أدخله محمد على فى مصر دون اعداد سابق ، وانما قام على ادارة وقدرة رجل عبقرى . وفصل أرتين باشا بعض الشىء الكلام على مجهودات حكومة محمـد على لتنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ ولقد كان أبوه وعمه عضوين فى اللجنة التى نهضت بهذا العمل .

ولأرتين باشا ملاحظات لها قيمتها — وان كنا لا نسلم بصحتها جميعا — منها تعليقه على عجز حكومة محمد على عن أن تنشىء فى مصر تعليما فنيا عاليا لعدم توافر الأساتذة الأكفاء ونقص المؤلفات العربية ومنها أيضا نقده للنظام الذى وضع للطلاب المصريين بباريس من حيث جمعهم فى (مدرسة مصرية) أنشئت لهم بباريس مما يحول اندماجهم فى الأوساط الغربية وحذقهم لغاتها .

وفى الملحق الثالث من كتابه أورد أرتين باشا قـوائم بالمدارس الابتدائية والتجهيزية والخصوصية التى أنشئت فى عهد محمد على وسرد تاريخ انشائها والغائها وأسماء نظارها ومديريها وهى معلومات نشرها أرتين باشا للمرة الأولى ، وهى — على قيمتها — تحتاج الى ضبط كثير فى ضوء وثائق ذلك العصر .

وكلما قرب أرتين باشا فى بحثه من العصر الذى عاش فيه اتسع أمامه مجال الدرس وغرزت المادة .

ولأرتين باشا كتاب آخر ، نشره بالفرنسية والعربية فى القاهرة فى سنة ١٨٩٤ وعنوانه : « القول التام فى التعليم العام "Considération sur l'Instruction publique" وهو كتاب — أو تقرير كبير — يشرح حالة التعليم فى مصر فى ذلك الوقت ويصف العلاج لنواحى النقص القائمة

وتزدان مكتبته « تاريخ التعليم فى مصر » بمؤلف شيخ المعلمين المرحوم أمين باشا سامى « التعليم فى مصر » (القاهرة ١٩١٧) وهو الكتاب الذى لا يزال مرجعا أساسيا لكل باحث فى هذا الموضوع ، وخاصة من سنة ١٨٦٣ ، أى من الأيام الأولى من عصر اسماعيل ، وهى التى قربت من (جيل) أمين سامى ، فشهدها تلميذا ثم مدرسا فعضوا بارزا فى الادارة التعليمية ، حيث توافينا ذاكرة الباشا القوية ومذكراته وأوراقه [١] وعمله الطويل فى وثائق الدولة بالمعلومات الغزيرة فى تاريخ معاهد التعليم وبرامج الدراسة بها وحياة الطلاب فيها . على أنا نستدرك فنقول انهذه المعلومات الغزيرة عرضت فىصورة جافة لا تنبض بالحياة. كما أن من المؤسف حقا أن عصر محمد على كان من (البعد) بحيث لم (يلحق) ذاكرة الباشا ومذكراته فجاءت معلوماته عن هذا العصر بمثابة (التمهيد) السريع لحديث مستفيض عن العصور التالية .

وفى ملحقات الكتاب سرد أمين باشا سامى — فيما سرد — قوائم بالمدارس التى أنشئت فى عهد محمد على مع بيان التطورات التى حدثت لها ، وهى بيانات لا تختلف كثيرا عما أورده أرتين باشا فى ملحقات كتابه .

ومن المؤلفات التى تعالج ناحية معينة من «تاريخ التعليم فى مصر» كتاب أرمنجون فى التعليم الدينى فى مصر

Arminjon : L'enseignement, la doctrine et la vie dans les Universités musulmanes d'Egypte. Paris, 1907.

وأرمنجون أقام بمصر وقتا يعمل أستاذا بمدرسة الحقوق ، وقد شاقه منظر الطلاب فىالأزهر منكبين على الدرس ، فزار الجامع الأزهر وتحادث مع أساتذته وطلابه واطلع على كتبهم ووقف على أساليبهم فى الدرس والتدريس ووازن بين هذا كله وما يعرفه من أساليب التعليم فىالجامعات

(١) تجدطائفة منهذه الأوراقمودعة بمتحفالتعليم التابعلوزارة المعارف.

الأوروبية بالعصور الوسطى ورد كل فرع من فروع التعليم الى أصوله التاريخية ، وسجل هذه الدراسة فى كتابه هذا عن الجامعات الاسلامية بمصر وهى الأزهر والمعاهد الدينية بالاسكندرية وطنطا ودسوق ودمياط. واذا كان الجزء الوصفى من كتابه شائقا فان الجانب التاريخى منه جاء ضعيفا [1] . وهو فى موضوعنا بالذات غير ذى عناء كبير .

ومن تلك المؤلفات الكتاب القيم الذى نشره المغفور له الأمير عمر طوسون فى سنة ١٩٣٤ عن : «البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد» . وقد ذكر سموه أنه اعتمد فى بحوثه على دفاتر دار المحفوظات العمومية بالقلعة ، ولكنه آثر ألا يذكر شيئا عن تلك الدفاتر من حيث النوع أو الرقم . ولا شك فى قيمة المعلومات التى سردها سموه عن أعضاء البعثات وتقصى تاريخ حياتهم بقدر المستطاع وبيان الخدمات التى أدوها للدولة ، فهى معلومات رائعة يكمن وراءها جهد بالغ . على أنه قد أتيح لنا — بزيادة التوفر على البحث فى وثائق القلعة وعابدين — أن نكتمل ونضبط ونصحح بعض المعلومات الواردة فى كتاب (البعثات العلمية) [2] .

وفى خلال ذلك كان العمل فى تنظيم الوثائق المصرية وتنسيقها ووضعها فى متناول الباحثين قد تقدم كثيرا ، حتى اذا حلت الفترة بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ أضيفت الى مكتبة «تاريخ التعليم فى مصر» أربعة كتب باللغات الثلاث : العربية والانجليزية والفرنسية . ومن (المصادفة) أن يكون مؤلفو هذه الكتب جميعا من المعلمين على اختلاف جنسياتهم وثقافتهم .

---

(١) من أمثلة (الخلط) التاريخى الذى وقع فيه أرمنچون ما ذكره فى ص ٤١ من أن المشايخ فى سنة ١٨٠٥ عزلوا السيد عمر مكرم (باشا مصر) وولوا بدله محمد على !

(٢) يمكن الرجوع لبيان هذه التحقيقات والمراجعات الى الفصول التى عقدناها عن البعثات العلمية فى كتبنا عن تاريخ التعليم فى مصر .

وهذه الكتب هى : —

١ — أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على . وقد أتمه مؤلفه فى ١٩٣٦ ونشره بالقاهرة فى ١٩٣٨ .

2. J. Heyworth-Dunne: An introduction to the history of Education in Modern Egypt. London, 1938.

3. J. Williams : Education in Egypt before British control. Birmingham. 1939.

4. Ibrahim Salama : L'enseignement islamique en Egypte. Son Evolition, son influence sur les programmes modernes. Le Caire. 1939.

ويلحق به مجلد آخر عن المصادر بعنوان :

Bibliographie analytique et critique touchant la question de l'enseignement en Egypte depuis la période des mameluks jusqu'à nos jours. Le Caire. 1938.

والآن فلنلق نظرة مقارنة على هذه الكتب .

ان « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » هو أول كتاب — بل هو فيما نعلم الكتاب الوحيد — الذى يكرس كله لتاريخ التعليم فى عصر محمد على وحده ، فضلا عن اعتماده الكلى على الوثائق العربية والتركية المودعة بقسم المحفوظات التاريخية بعابدين ، كما يبدو من حرص المؤلف على ذكر الدفاتر والمجلات التى رجع اليها بأرقامها وتاريخها ومكانها .. الخ وايراده نماذج فى ملاحق كتابه . وهكذا وجد المؤلف نفسه أمام (مادة خام) غزيرة تناولها بالبحث للمرة الأولى ومنها كون عناصر الصورة التى عرضها للتعليم فى عصر محمد على . وهكذا انفسح المجال أمام المؤلف للتحقيقات الواسعة والتفصيلات الدقيقة والبحوث العميقة التى اكتظ بها هذا الكتاب الضخم ، حتى حظيت كل ناحية من (التعليم فى عصر محمد على) بحظها من الدراسة الشاملة . وانا نعتقد — ومن الصعب حقا أن يتحدث مؤلف عن آثاره ! — أن أبرز نواحى الكتاب :

١ — سياسة محمد على التعليمية .

٢ — توضيح تطـور التعليم فى عصر محمـد على وبيان مراحـله الأساسية فى ١٨٣٣ ، ١٨٣٦ ، ١٨٤٠ ، ١٨٤٨ .

٣ — تفصيل الكلام على كل معهد من معاهد التعليم وحياة التلاميذ المدرسية ونظم امتحانهم وعطلتهم .. الخ .

٤ — بيان وجوه التأثير المتبادل بين التعليم القديم ممثلا فى الأزهر والمكاتب الأهلية والتعليم الحديث ممثلا فى مدارس الحكومة ومكاتبها .

٥ — بعض تحقيقات فى موضوع البعوث العلمية فى عهد محمد على .

أما الأستاذ هيورث — دن الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن فقد نشر كتابه الذى قصد به أن يكون « مقدمة » لتاريخ التعليم فى مصر الحديثة فى سنة ١٩٣٨ بعـد أن قضى سنوات بمصر مشتغلا بالتدريس وبغير التدريس وفى خلال ذلك كان يهتم ببعض المخطوطات العربية القديمة ويجمع المادة الغزيرة التى ألف منها كتابه الذى نحن الآن بصدده ، والذى انتظم دراسة واسعة لعصر حافل — بل لعصور حافلة — امتدت من القرن الثامن عشر الى دخول الانجليز مصر فى سنة ١٨٨٢ . ولاشك أن الأستاذ دن قـد بذل جهدا كبيرا فى اعـداد مادة كتابه وتنسيقها وربط أجزائها بعضها ببعض وعرضها ، وقد حرص المؤلف على أن يسند كل حقيقة ذكرها الى مرجعهـا من الكتب والتقـارير والاحصائيات . كما أنه لم يهمـل تماما الناحية الوثائقية ، فحاول أن (يدخلها) فى كتابه الكبير . ولكن من الواضح أن المؤلف لم يبذل فى هـذه الناحية من الجهد مثـل ما بذله فى بحث الكتب والتقارير المنشورة .

واذا كان هذا القصور فى ناحية البحث الوثائقى لا تبدو خطورته فى العصور التالية لحكم محمد على وخاصـة فى عصر اسماعيل الذى يزخر بالتقارير والمنشورات والاحصائيات المنشورة وكلها مادة غزيرة للبحث ،

فان لهذا القصور — لاشك — خطورته بالنسبة لعصر محمد على الذى لا يمكن بأى حال من الأحوال تأريخ التعليم فيه — بل تأريخ أية ناحية منه — دون الرجوع الى الوثائق العربية والتركية والأجنبية واستقرائها فى دقة وصبر وأناة . وهذا فيما نرى النقص الواضح فى كتاب الأستاذ دن وفى أكثر الكتب الأخرى التى أرخت للتعليم فى مصر ونشرت فى السنوات العشر الأخيرة . على أن من الانصاف أن نضيف الى ذلك أن الأستاذ هيورث دن قد بذل جهده ليعوض هذا (النقص) بالتوفر على بحث المادة المنشورة والافادة منها فى تأليف كتابه .

أما مستر وليمز فقد جذبته — هو الآخر — مهنة التعليم بمصر الى محاولة تأريخ التعليم فيها ، فنشر فى سنة ١٩٣٩ كتابه الموجز الذى وقف به — كما فعل زميله دن — عند احتلال الانجليز مصر وسيطرتهم على التعليم فيها . ولكن كتاب وليمز — على ايجازه الشديد قد تناول موضوع التعليم فى مصر فى مختلف عصورها ، مبتدئا بمصر الفرعونية ومنتهيا بمصر فى عهد الخديويين . ولهذا لم نتوقع أن يظفر عصر محمد على من هذا كله بأكثر من تلك الصفحات التى أوجز فيها وليمز ما رددته الكتب (العامة) عن مدارس محمد على وبعثاته . فنحن اذن أمام (مجمل) يقدم صورة عامة لتطور التعليم فى مصر ، وهو من هذه الوجهة لا يخلو من فائدة .

والدكتور ابراهيم سلامة صاحب « التعليم الاسلامى بمصر » و « مراجعه » معلم قديم ، جمع بين الثقافة العربية الاسلامية التى تلقاها فى الأزهر ودار العلوم والثقافة الغربية التى تلقاها بأوربا ، وحاول أن يؤلف بينهما فى ذلك الكتاب ، أو تلك (الرسالة) التى نوقشت أخيرا فى جامعة باريس وأجيزت لدرجة الدكتوراه فى الآداب . ومن هذه الناحية ينبغى أن يؤخذ هذا البحث بعين الاعتبار . على أن هذه الناحية بعينها موضع النظر ، فهذا بحث وضعه صاحبه — عن موضوع عربى —

بلغة أجنبية ، وتقدم به لجامعة أجنبية وناقشه وأجازه أساتذة من الأجانب ، لا نحسب أنهم يعرفون عن موضوع البحث أكثر مما يعرفه صاحبه ، ولا نظن أن صاحب البحث قد أفاد منهم كثيرا ، الا فيما قد ينتصح به عن أستاذه من أساليب البحث وطرائقه . وهذه الاعتبارات كلها — فيما يبدو — هى التى شكلت رسالة الدكتور سلامة على النحو الذى ظهرت به . وكنا نود لو اختار الدكتور لكتابه عنوانا أبسط وأكثر انطباقا لحقيقة الكتاب وموضوعاته . وانا نعتقد — دون أن ندخل فى التفصيلات اذ ليس هذا مكانها — أن الدكتور سلامة لو نشر كتابه بالعربية لراجع مادته فحذف منها ما (زاد) على موضوع الكتاب وغيّر منها ما لايلائم القارىء (العربى) أو يتفق وحاجاته .

أما الجزء الخاص بالتعليم فى عصر محمد على فقد حوى معلومات كثيرة ينقصها كثير من الضبط والتحقيق وخاصة فى موضوعين : موضوع انشاء الادارة التعليمية وموضوع البعوث العلمية ، كما أن تصوير سياسة محمد على فى التعليم جاء غامضا ، وقد جاء ذلك فيما نعتقد نتيجة لضعف الأساس التاريخى الذى يجب أن يقوم عليه البحث ، فضلا عن القصور الواضح فى ناحية البحث الوثائقى على الرغم من تلك الاشارات المبعثرة فى هوامش الكتاب الى وثائق من محفوظات عابدين . وانا لنعتقد أن زيادة التوفر على البحث فى الوثائق المحفوظة كان قمينا بأن يغير بحث الدكتور سلامة كله من أساسه . بل انا نذهب الى أبعد من هذا فنتمنى لو أن الدكتور ابراهيم سلامة كان قد كرس الجهد العنيف الذى بذله فى تأليف هذه الرسالة — ذات الموضوعات المتعددة دون انسجام — لبحث تاريخ الأزهر ، وهو التاريخ الذى لا يزال — حتى بعد ظهور « التعليم الاسلامى فى مصر » — غير مكتوب .

تحليل لأهم الوثائق :

وليس غرضنا فى هذا المقال أن ندل الباحث على الوثائق التى ينبغى

الرجوع اليها لكتابة « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » فقد فعلنا هذا فى مكان آخر [1]. ولكنا نكتفى بأن نشير الى طائفة من تلك الوثائق لايمكن كتابة هذا التاريخ الا بالرجوع اليها .

وهذه الوثائق هى :

أولا : اللوائح والنظم التى وضعت لتنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ ، وقد وضعت باللغة الفرنسية أولا ثم ترجمت الى اللغة العربية ، والنسخة الفرنسية طبعت فى مجموعة على حدة .

ثانيا : أوامر محمد على الى الدواوين التى كانت تتبع لها مدارسه وهى : المعية والجهادية والمدارس . فهذه الأوامر تقدم لنا صورة من سياسة محمد على فى التعليم واهتمامه الدائب بمسائله . وهذه الأوامر تجدها فى دفاتر المعية ودفاتر مجلس الملكية ومحافظه .

ثالثا : مضابط مجلس (أو شورى) المدارس : وهى تحتوى على تقارير مستفيضة وضعها أعضاؤه عن حالة التعليم فى مصر قبل أن ينظم طبقا للوائح ١٨٣٦ والكيفية التى تم بها هذا التنظيم . وهذه المحاضر تجدها فى الدفاتر والمحافظ التركية لديوان المدارس .

رابعا : المكاتبات المتبادلة بين ديوان المدارس وفروعه ومدارسه ، وهى تقدم لنا صورة من نشاط ديوان المدارس وحالة المدارس فى ذلك العصر وحياة التلاميذ فيها والنظم التى كانوا يخضعون لها والكتب التى كانوا يقرءون ومواد الغذاء والأدوات المدرسية ... الخ . وهذه المكاتبات تجدها مسجلة فى الدفاتر العربية لديوان المدارس .

والآن نحلل جانبا من تلك الوثائق التى نعتقد أنها تقدم — فى مجموعها — صورة لطور التعليم فى عهد محمد على . وهى :

أولا : الوثائق المتعلقة بحركة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦

---

(١) انظر كتابنا : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٧٥٥ ـ ٧٧٥

ثانيا : لوائح سنة ١٨٣٦

ثالثا : تقرير باعادة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٤٠ — ١٨٤١

أولا : الوثائق المتعلقة بحركة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ [١] :

يخطىء من يظن أن نشاط حكومة محمد على فى ميدان التعليم لم يبدأ الا بانشاء ديوان المدارس فى سنة ١٨٣٦ ، اذ الواقع أن المدارس التجهيزية والخصوصية التى عاشت الى نهاية عصر محمد على أو بعد عصر محمد على انما أنشئت قبل ١٨٣٦ ، أما المدارس الابتدائية (أو مكاتب المبتديان) فقد أنشىء أكثرها فى سنة ١٨٣٣ . فلما وضعت لوائح ١٨٣٦ ألغى عدد منها ونظمت المكاتب الباقية طبقا لتلك اللوائح . فهذه اللوائح اذن لم تنشىء مدارس أو مكاتب جديدة — وان استخدمت فيها أحيانا كلمة الانشاء — وانما نظمت مدارس ومكاتب كانت قائمة .

وأهم وثيقة توضح الأهداف والخطوات التى سارت فيها عملية (التنظيم) هذه كتاب وجهته المعية الى السرعسكر (القائد العام للجيش ابراهيم باشا) فى ١٩ رمضان ١٢٥١ [٢] . ويؤخذ من هذا الكتاب مايلى :

١ — ان حركة التنظيم بدأت بصدور أمر من محمد على بتشكيل (لجنة عامة) للنظر فى شئون المدارس رئيسها مختار بك وأعضاؤها فريق من مديرى المدارس الخصوصية وأساتذتها . وهذه اللجنة ليست دائمة ، وانماهى مؤقتة تنتهى بانتهاء المهمة التى وكلت اليها : وهى وضع اللوائح لتنظيم التعليم . وهذه حقيقة يجهلها كثير ممن كتبوا ويكتبون فى تاريخ التعليم فى مصر ، اذ أنهم يخلطون بين هذه اللجنة — ذات المهمة المؤقتة — ومجلس (أو شورى) المدارس ؛ وهو الهيئة الأخرى الدائمة

---

(١) المصدر السابق ص ٩٣ ـ ١٢٢

(٢) سجل ٢١٢ (عابدين) ص ٢٩ رقم ١٧٧ فى رمضان ١٢٥١ . وقد نشرنا ترجمة هذا الكتاب فى الثانى من كتابنا ص ٦٧٥ ـ ٦٧٦

التى كان انشاؤها نتيجة لمداولاته وقرارات اللجنة الأولى .

٢ — نظرت اللجنة العامة الى التعليم على اختلاف معاهده على أنه يؤلف نظاما واحدا مترابط الأجزاء يعد الطالب فى مراحل ثلاثة : ابتدائية وتجهيزية وخصوصية . ووضعت اللجنة لائحة لكل مرحلة ، كما وضعت لائحة عامة تنتظم أمر المدارس جميعا .

٣ — وبوضع تلك اللوائح انتهت مهمة اللجنة العامة لتنظيم التعليم ، ولكن رؤى أن المدارس والمكاتب تحتاج بعد تنظيمها الى هيئة فنية تقوم على الاشراف عليها وخاصة خلال السنوات الأولى من تنظيمها . وهذه الهيئة الفنية لم تكن متوافرة فى ديوان الجهادية التى كانت المدارس تابعة له . وبذلك ظهرت الحاجة ماسة الى تنظيم العلاقة بين ديوان الجهادية والمدارس ، فأمر محمد على « بتشكيل لجنة من حبيب أفندى والباشا ناظر الجهادية والبك الخزينة دار ومختار بك ناظر مجلس الملكية وحسين بك خزينة دار الجهادية فاجتمعوا بديوان المعاونة لتنظيم ماهو معلوم من تبعية هذه المدارس لديوان الجهادية » .

٤ — « وبعد بحث طويل فى هذا الصدد — يستطرد كتاب المعية الى ابراهيم باشا — وافقوا على اقامة لجنة مؤلفة من بضعة رجال من خريجى مدارس أوروبا لتتولى المحافظة على النظام المزمع قبوله ولتبحث فيما سيعرض عليها دواما من أمور القراءة والكتابة والتعليم والتعلم الخاصة بالمدارس » .

وهذه اللجنة « الدائمة » التى أنشئت لتعرض عليها الشئون الفنية الخاصة بالمدارس هى ما عرفت بعد ذلك باسم « شورى المدارس » أو « مجلس المدارس » . وقد شكل برياسة مختار بك وثلاثة أعضاء دائمين وينضم اليها أعضاء استشاريون كلما دعت الحاجة . والمطلع على محاضر جلسات شورى المدارس يقدر الجهود الرائعة التى بذلها أعضاؤه

لتنظيم المكاتب والمدارس ورفع مستواها ، مع الاستعانة بالهيئات الفنية والادارية التى أنشئت وأهمها هيئات التفتيش الفنى والصحى .

٥ — ولكن معاهد التعليم ظلت بعد انشاء شورى المدارس تابعة — من الوجهة الادارية التنفيذية — لديوان الجهادية ، واستفحل النزاع بين الهيئتين ، ورفعت التقارير عن هـذا النزاع الى محمد على فرأى أن المدارس قد اكتملت شخصيتها وتعقدت شئونها بحيث يحق لها الآن أن تتحرر من ديوان الجهادية ، فيكون لها ديوان خاص « تبصم فيـه قراراتها » . وبفحص السجلات التركية لديوان المدارس ظهر أن الأمر الرسمى لمحمد على بانشاء ديوان المدارس قد صـدر فى أوائل شهر ذى القعدة (أو على التحديد بين اليومين الأول والخامس منه) من سنة ١٢٥٢ (فبراير ١٨٣٧) . أما شورى المدارس فقد ظل قائما بعد ذلك نحو ثلاثة أشهر ثم وقفت جلساته ، واستمر ديوان المدارس قائما حتى ألغى فى حكم سعيد باشا ، ثم أعيد تشكيله فى أول حكم اسماعيل باشا .

ثانيا — لوائح سنة ١٨٣٦ :

وضعت هذه اللوائح — كما قلنا — اللجنة العامة التى شكلت برياسة مختار بك لتنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ ، وقد وضعت أولا باللغة الفرنسية ثم ترجمت الى التركية والعربية ، ووزعت على المدارس لتسير طبقا لها . وقد أعيانا البحث عنها كاملة فى محفوظات عابدين والقلعة والمكتبات العامة ، فلم نجد منها الا لائحة للتعليم الابتدائى فى كتيب بدار الكتب المصرية يضم نصا تركيا وآخر عربيا ، كما عثرنا على النص العربى أو الترجمة العربية بأحد دفاتر مجموعة الترتيبات والوظائف بمحفوظات عابدين[1] ، وكذلك عثرنا بدار الكتب المصرية أيضا على قوائم مطبوعة بمرتبـات

(١) نشرنا الترجمـة العربية للائحـة التعليم الابتدائى فى كتـابنا ص ٦٨١ ـ ٦٨٥

موظفى وتلامذة المدارس وتعييناتهم وملابسهم وأدوات غذائهم ومنامهم الخ[1] .

وقنعنا — حين كنا نضع كتابنا فى تاريخ التعليم فى عصر محمد على — بما وجدناه من تلك اللوائح فى ذلك الوقت ، مع الاستفادة من الملخصات التى أوردها هامون وبورنج وغيرهما للوائح الأخرى المفقودة ، وبعد أن تم نشر الكتاب فى سنة ١٩٣٨ عثرنا على نسخة من المجموعة الفرنسية للوائح ١٨٣٦ كاملة فى مكتبة المجمع المصرى ، وها نحن نعرض لهـا بالتحليـل :

عنوان المجموعة : «لوائح وافق عليها وزير المعارف العمومية لتنظيم المدارس فى حكم محمد على»[2] . وهى مطبوعة بباريس فى تاريخ غير مذكور . وتبدأ بمقدمة قصيرة — لا تخلو من الخطأ[3] — عن أمر محمد على بتشكيل لجنة لتنظيم المدارس القائمة ، فقدمت اليه بعد عمل دقيق تلك اللوائح التى انتظمتها تلك المجموعة . وأعربت تلك المقدمة — ونحن نجهل كاتبها — عن الأمل فى أن تؤتى تلك اللوائح أطيب النتائج ، ولأهميتها جمعت فى تلك الكراسة خشية «ضياعها أو اهمالها» .

قامت تلك اللوائح على قاعدتين أساسيتين حرصت اللجنـة على تطبيقهما فى كل ناحية :

الأولى : أن تخضع المدارس جميعا من لون واحد لنظام واحد فى كل شىء : فالكتب التى يقرؤها تلاميذ الفرقة الواحدة واحدة وكذلك الغذاء الذى يتناولونه واللباس الذى يلبسونه والامتحانات التى يؤدونها .. الخ .

---

(١) نشرنا هذه القوائم فى كتابنا ص ٦٨٦ — ٦٩٢

(٢) وعنوان المجموعة بالفرنسية :

Réglements approuvés par le Ministre de l'Instruction Publique pour l'organisation des écoles sous Mohammed Ali.

(٣) جاء فى المقدمة أن أول مدرسة أنشئت بمصر هى مدرسة الطب بأبى زعبل فى سنة ١٨٢٧ وليس هذا بصحيح .

الثانية : أن تخضع معاهد التعليم جميعا لاشراف شورى المدارس ، وبذلك كانت تلك اللوائح الأساس الذى قام عليه النظام . المركزى فى ادارة التعليم ، حتى اذا أنشىء ديوان المدارس ورث هذا السلطان المركزى عن شورى المدارس وتمسك به وتوسع فى تطبيقه .

تنقسم تلك المجموعة من اللوائح الى أقسام :

القسم الأول : لائحة عامة لتنظيم التعليم من ٥٧ مادة : ٣٩ مادة منها تنظم مراحل التعليم الثلاثة مع بيان أغراض كل مرحلة ومعاهدها ، مع أحكام عامة عن ضرورة توحيد الكتب الدراسية وسائر النظم المدرسية التى يخضع لها الطلاب .

ثم تنتقل اللائحة الى الحديث عن «المجلس الأعلى للمعارف العمومية» أو «شورى المدارس» وله «الادارة العامة والاشراف الأعلى على جميع المدارس المدنيـــة والعسكرية ، فى كل النواحى الادارية والتأديبيـــة والتعليمية وذلك بتطبيق اللوائح وتفقد المدارس فى زيارات دورية وغير دورية والنظر فى التقارير التى يرفعها اليه نظار المدارس ومديروهـــا ورياسة لجان امتحانها » .

ويلى ذلك قـــوائم برتبات موظفى وتلامذة المـــدارس وتعييناتهم وملابسهم ... الخ . وقد أشرنا الى عثورنا على نسخة من تلك القوائم باللغة العربية ونشرها فى ملحقات كتابنا .

القسم الثانى : لائحة التعليم الابتدائى من ٢٧ مادة . ومما يلفت النظر أن النسخة الفرنسية التى نحن بصددها — وهى الأصل — لا تختلف كثيرا عن الترجمة العربية السقيمة التى عثرنا عليها على حدة بدار الكتب ومحفوظات عابدين ، الا أنها أدق تعبيرا وأكثر تنسيقا .

نظمت اللائحة أمر التعليم الابتدائى بمصر ، فعينت عدد مدارســـه ومكاتبه بالقاهرة والأقاليم وحددت عدد طلابها وكيفية قبـــولهم ومدة

الدراسة ومواردها وهيئة التدريس والادارة بها والعقوبات التأديبية ونظام التفتيش والامتحانات .

القسم الثالث : لائحة التعليم التجهيزى من ٣٦ مادة : جرت على منوال لائحة التعليم الابتدائى، فحددت عدد المدارس التجهيزية والغرض منها وسنوات الدراسة ومواردها وهيئات التدريس والادارة والتطبيب بها والامتحانات .. الخ ، بما يتفق وارتفاع مستواها عن مستوى المدارس الابتدائية ، فأدخلت النظام العسكرى بها ، وقسمت الطلاب الى سرايا وبلوكات وأقامت منهم رؤساء يساهمون مع الضباط فى قيادة الطلاب والاشراف على سلوكهم ، وأنشأت فى المدرسة مجلسا للتعليم والتأديب من مدير المدرسة وبعض أساتذتها .

ثالثا — الوثائق الخاصة باعادة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٤٠ — ١٨٤١ [1] :

فى سنة ١٨٤٠ بدت الحاجة ماسة الى اعادة النظر فى النظام التعليمى على ضوء التجربة التى مرت بها معاهد التعليم منذ نظمت للمرة الأولى فى سنة ١٨٣٦ وعلى ضوء حاجات البلاد الجديدة : اذ وضح أن مكاتب ومدارس المبتديان أخذت تخرج من التلاميذ أكثر من حاجة المدرسة التجهيزية ، كما وضح أن دوائر الحكومة عجزت عن أن تستنفد كل خريجى المدارس الخصوصية ، لهذا اتجهت الرغبة الى وضع نظام جديد للتعليم يحقق ما تنشده الحكومة من اقتصاد لمالها من ناحية و (حبك) للنظام التعليمى من ناحية أخرى .

وأهم الوثائق المتعلقة بالتنظيم الجديد وثيقتان تدلان على المراحل التى تمت فيها حركة التنظيم هذه :

الأولى : هى الأمر العالى الذى أصدره محمد على فى ٢٤ شعبان

(١) انظر كتابنا : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ١٢٣ ـ ١٣٦

سنة ١٢٥٧ (١) بالموافقة على « الترتيب الذى وضعته اللجنة المنعقدة بحضور نجلنا الباشا السرعسكر لأجل ديوان المدارس ... وان القرار الصادر منها بالغاء مكاتب المبتديان الكائنة بالأقاليم وبالسيدة زينب ومدرسة الموسيقى الغاء تاما والغاء مدرسة التجهيزية أيضا وتوزيع التلاميذ على آلايات البيادة والسوارى والطوبجية وارسال الضباط الى ديوان معاونتنا لاستخدام من يصلح منهم فى المصالح ورفت بعض الخدمة من المدارس الأخرى ... »

ويضيف « هامون » الى ذلك أن الالغاء شمل أيضا المدارس الخصوصية ، « وقد نتج عن الغاء المدارس احساس عميق مؤلم » . وهكذا ألغيت معاهد التعليم جميعا .

على أنه يبدو أن قرار الحكومة بالغاء المدارس لم يكن نهائيا ، وأنها انما كانت تهدم لتبنى من جديد ، اذ سرعان ما شكلت لجنة أخرى بديوان المدارس ، كان من أعضائها ستة من أعضاء اللجنة الأولى التى نظمت التعليم فى سنة ١٨٣٦ ، لهذا ليس غريبا أن نرى لجنة سنة ١٨٤١ تحتفظ للنظام التعليمى بالأسس العامة التى أقيم عليها فى سنة ١٨٣٦ .

أكبت اللجنة الجديدة على العمل ، فأخذت « تنظر فى أمر المكاتب الابتدائية والمدرسة التجهيزية الملغاة جميعا فيقتصر منها على فتح العدد الذى تمس الحاجة الى فتحه سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم باعتبار هذه المدارس أصلا وأساسا للمدارس الخصوصية » . وراحت تبحث المدارس الخصوصية مدرسة بعد أخرى على ضوء حاجة الدولة الى خريجيها وعلى ضوء ما حققته المدرسة من نتائج . وخرجت اللجنة من هذه الدراسة الدقيقة بتقرير قيم نال موافقة ولى النعم (١) ، وهو (الترتيب) الذى نظم التعليم فى مصر فى السنوات الباقية من عصر

(١) نشرنا نص هذا الأمر العالى فى ملحقات كتابنا ص ٧٣٨ .

محمد على (١٨٤١ — ١٨٤٨) . والحق أن عمل اللجنة كان شاقا والتيارات التى تتجاذبها متباينة : فبينما كانت تضع نصب أعينها « التحرز من ابتداع زائد النفقات » تمشيا مع السياسة العامة للدولة فى ذلك الوقت ، كانت فى الوقت نفسه جد حريصة على أن يظل النظام التعليمى الذى حشدت له الجهود وبذلت الأموال سنين طويلة سليما قائم الأركان .

احتفظت اللجنة بمراحل التعليم : الابتدائية والتجهيزية والخصوصية ، ولكنها قصت أطرافها فأنقصت عدد طلاب المدارس الخصوصية ، فسرح الفاشلون منهم وصرف بعض أساتذتها ، باستثناء مدرسة المهندسخانة التى رأت اللجنة أن « من البداهة أنه كلما تقدمت البلاد زادت حاجتها الى المهندسين ، فلم تر من الحكمة أن تجعل هذه المدرسة أصغر وأشد اختصارا مما هى عليه الآن » . وأبقى على المدرسة التجهيزية بعد أن أنقص عدد تلامذتها وضمت الى مدرسة الألسن كقسم منها . أما المكاتب الابتدائية فهى التى أصابتها الضربة حقا : فقد رأت اللجنة أن تغلق جميعا ، عدا مدرسة ابتدائية بالقاهرة وأربعة مكاتب بالأقاليم بحيث تكفى فقط لامداد المدرسة التجهيزية بالتلاميذ . وهكذا اختفت « مكاتب المبتديان » الأميرية وتركت المجال للمكاتب الأهلية القائمة منذ قديم .

وتمشيا مع خطة الاقتصاد أنقصت مرتبات التلاميذ فى سائر المدارس وأعيد النظر فى تعييناتهم . وأعادت اللجنة تنظيم ديوان المدارس ، فنسقت أقلامه وأنشأت قلما جديدا للترجمة من خريجى مدرسة الألسن .

أحمد عزت عبد الكريم